المحاضرة التاسعة : الأسلوب القرآني وشبه المستشرقين حوله

الشبهة الأولى : أسلوب القرآن المكي والمدني

الشبهة الثانية : طول الآيات وقصرها وعددها وشبههم

الشبهة الثالثة : الفاصلة القرآنية

الشبهة الأولى : أسلوب القرآن المكي والمدني

قالت الموسوعة البريطانية : [.. إن أسلوب الوحي المحمدي جاء نثرا مقفى ، أو ما يسميه العرب بالسجع ، وقد استعمل هذا الأسلوب سابقا من قبل الكهنة ، ومن قبل المنجمين.

فالسور الأولى تتصف آياتها بالقصر وبقوتها الشعرية وبتعبيرها الحيوي. أما السور الأخيرة فجاءت آياتها طويلة ، مفصلة ومعقدة نثرية في مظهرها ولغتها ، ومما تسبب عنها اختلاف في ترقيم الآيات][1].

الجواب :

هذه العبارات تناولت عدة قضايا :

١ ـ الأسلوب المكي والمدني.

٢ ـ صلة هذا الأسلوب بأسلوب الكهان والمنجمين.

٣ ـ الآيات طولا وقصرا.

أولا : الأسلوب المكي والمدني :

التفرقة بين الأسلوب المكي والمدني أمر كانت له أبعاده ومقدماته ونتائجه ، وهي قضية طالما تعرض لها رجال التبشير والاستشراق على السواء ورددها تلامذتهم كثيرا.

إن الغاية من تقسيم القرآن إلى أسلوبين ـ عند المستشرقين والمبشرين ـ إثبات أن هذا القرآن كان خاضعا للبيئات المختلفة فهو في مكة كان ذا أسلوب شعري يتفق مع لغة القوم وثقافتهم العربية المحدودة ، ولكنه في البيئة المدنية كان متأثرا بأهل الكتاب الذين كانوا هناك من اليهود والذين كان لهم من الثقافة ما لم يكن لهؤلاء ، وعلى هذا فالقرآن كان يخضع لأمزجة مختلفة ، وثقافات متغايرة ، فليس نسقا واحدا ، فآياته في مكة قصيرة ذات أسلوب وإيحاء قوي ، ولكنها في المدينة كانت طويلة ذات أسلوب معقد. وهذه فرية من جملة أكاذيبهم التي لا تقوم على دليل [1].

إن القرآن المكي جاء ليعالج موضوع العقيدة بشكل رئيسي ، وما يتصل بها من أخلاق فاضلة لذا سخر لذلك كل شيء حتى القصص القرآني. أما القرآن المدني فكان تركيزه على إيجاد نظام شامل لكل متطلبات الحياة. واختلاف الموضوع قد ينتج عنه تنوع في الأسلوب من حيثية معينة ولكنه يحافظ على الجودة وحسن الصياغة.

فطبيعة الموضوع نفسه تقتضي شيئا من التغير في العرض فالأسلوب فيهما إذا يمتاز بجودة النظم ، وروعة الأسلوب ، وعلو الشأن وبديع الصنع ، والتناهي.

الشبهة الثالثة : زعم بعضهم أن القرآن المكي تأثر بالأوساط التي نزل فيها من حيث التأدب في اللفظ وعدمه. فالمكي تجد فيه الألفاظ النابية أما المدني فتجد فيه رفعة في العبارة وبعدا عن هذه الألفاظ [٢].

إيحاء منهم بالتأثر بالأدب اليهودي في المدينة ـ على حد زعمهم ..

الجواب : هذه الأوصاف التي يطلقها المستشرقون على القرآن الكريم عارية عن الصحة. أما إن قصدوا بها الوعد والوعيد والتقريع والتهديد للكفار في بعض الآيات ، أو صفحا وعفوا في غيرها فهذا النوع من الآيات لا يسمى سبابا ولا شتما بل هو لون من ألوان الأسلوب العربي. والقرآن الكريم نزل بلغة العرب وعلى أساليبهم وأفانين الكلام عندهم.

وهذا النوع من الأسلوب ليس في السور المكية فقط ـ على حد زعمهم ـ بل هو موجود كذلك في السور المدنية قال تعالى في سورة البقرة : **(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولئِكَ ما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ)**[١].

أما الأسلوب الرفيع البعيد عن البذاءة ـ على حد تعبيرهم ـ ويقصدون به العفو والصفح وأنه غير موجود في السور المكية فهي مجرد دعوى وآيات العفو والصفح كما هي في السور المدنية فهي في السور المكية ومثال ذلك ما جاء في سورة الأعراف **(خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ)**[٢] وقوله تعالى في سورة فصلت : **(وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)**[٣] الآية.

فمن هنا يظهر أن مسلك القرآن الكريم في كل هذه الألوان من الأساليب من وعد ووعيد ، وترغيب وترهيب ، وعفو وصفح وتهديد ، راجع لمقتضى المقام وهذا هو الأسلوب الحكيم.

الشبهة الثانية : طول الآيات وقصرها وعددها وشبههم

الشبهة الأولى :

ذكرت دائرة المعارف البريطانية في هذا الشأن (أن السور الأولى تتصف آياتها بالقصر ، وبقوتها الشعرية ، وبتعبيرها الحيوي ، أما السور الأخيرة فجاءت آياتها طويلة مفصلة ومعقدة نثرية في مظهرها ولغتها ، بحيث إنه أصبح من الصعب التمييز أين تنتهي الآية ، مما تسبب عنه اختلاف في ترقيم الآيات) [٢].

الجواب :

فقضية قصر الآيات وطولها أمر توقيفي لا اجتهادي عينه المصطفي ـ صلى‌الله‌عليه‌وسلم ـ وكان مراعيا فيه لمقتضى حال المخاطبين وليس لتأثره بالبيئة المكية أو المدنية. وكان مراعيا كذلك أفانين الكلام عند العرب في كلا البيئتين ، حيث كان عندهم أسلوب الإطناب والإيجاز ، فجاءت الآيات على الأسلوبين سواء في مكة أو في المدينة ، وأهل مكة لم يكونوا شعراء فقط بل كانوا كذلك أدباء بلغاء لا يقلون في الإبداع عن كونهم شعراء أفذاذ ، لأن الكلام بضاعتهم في كل نواحيه ، وقد اشتهر منهم في مكة أدباء أصحاب نثر بديع كما اشتهر فيهم شعراء مبدعون.

وهناك أمر هام وهو أن السور المكية لم تكن كلها ذات آيات قصيرة ، وكذلك لم تكن المدنية كلها ذات آيات طويلة كما يظن المستشرقون. فمن السور المكية من آياتها طوال وهي كثيرة العدد أكثر من بعض السور المدنية كما هو الحال في سورة الأنعام ، وغيرها ، ومن السور المدنية قصيرة الآيات ، قليلة العدد كسورتي النصر والإنسان ، وغير ذلك كثير.

الشبهة الثالثة : الفاصلة القرآنية

زعم المستشرقون كما في دائرة المعارف البريطانية أن القرآن الكريم ألف بطريقة عشوائية والذي يدل على ذلك ويؤكد صحته ختم آياته بفواصل وضعت لغير حكمة ولا فائدة وإنما وضعت لتتميم السجع والقافية للآيات [١].

الجواب :

الفواصل : حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني والفواصل بلاغة ، والأسجاع عيب. وذلك أن الفواصل تابعة للمعاني ، وأما الأسجاع فالمعاني تابعة لها وهو قلب توجبه الحكمة في الدلالة [٢].

وفواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة لأنها طريق إلى إفهام المعاني التي يحتاج إليها في أحسن صورة يدل بها عليها.

والفواصل على وجهين : أحدهما على الحروف المتجانسة كقوله تعالى : **(طه ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشى)**[٣].

والآخر على الحروف المتقاربة فكالميم من النون كقوله تعالى : **(الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ. مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)**[٤] وإنما حسن في الفواصل الحروف المتقاربة. لأنه يكتنف الكلام من البيان ما يدل على المراد في تمييز الفواصل والمقاطع ، لما فيه من البلاغة وحسن العبارة.

وأما القوافي فلا تحتمل ذلك لأنها ليست في الطبقة العليا من البلاغة. وإنما حسن الكلام فيها إقامة الوزن ومجانسة القوافي فلو بطل أحد الشيئين خرج عن ذلك المنهاج ، وبطل ذلك الحسن الذي في الأسماع ، ونقصت رتبته في الأفهام.

والفائدة في الفواصل دلالتها على المقاطع ، وتحسينها الكلام بالتشاكل وإبداؤها في الآي بالنظائر [٥].